



وفي الزنزانة التاسعة عشرة في مطار المزة العسكري فرع المخابرات الجوية كانت ملامح عبد الخالق حين عاد سليماً من التحقيق على غير عادته توحى أن دماً سورياً جديداً سيسفك تلك الليلة.

فنحن من جيلٍ كَبَرَ قبل أن يولد . وحين ولد وجد أباءه لازالوا يَحْبُّونَ بقربه.

ولأن الزنزانة كانت بالأصل زنزانة فردية كان نصفنا يقفُ بينما يجلس النصف الآخر لكي نستريح قليلاً.

وما ان التقت عيناي بعيني عبد الخالق حتى أصدق وجهه بالجدار كأنه يختبئ فيه . وآخر ما أردته في حياتي أن تكون نهاية عبد الخالق تحت الجدار !!

ولاح لي هول فقدان عبد الخالق ذاك الشابُ الحمصيُ النبيل . فرغم كل قطع اللحم التي أخذوها من جسده كان يتحداهم بما تبقى منه . لا ينهر تحت التعذيب ، تشعر بمجرد أن تقف أمامه أنكَ تعain رجلاً حقيقياً و سورياً أصيلاً و شجاعاً لا يخاف الموت .

حين اقتربت منه بما فيه الكفاية لأهمس له عبد الخالق مازا بك لم لا تتكلم مازا فعلوا بك مازا قالوا لك !

رد عليّ بفيسنٍ من دموع كسرت أحداقه وسالت على وجهه ولحيتهِ الشقراء التي تُخْبِئ خلفها أشهرأ طويلاً قضاهَا هناك قبلي وعمرأ لم يتجاوز الثامنة والعشرين . واحتنق بكاءه وغضّ وهو يقول :

خي وائل قالولي (((عالجادر .)))

ونظر إليّ . فشعرت أنه اخترق قلبي كأنه يعاتبني فمنذ وصولي وأنا أردد عليه أنتا سترج يوماً من هناك وأنتا سنتظاهر من جديد وأنتا لن نموت هناك أبداً وأن من هم في الخارج لم ينسونا أبداً !

لكني بعد أن عرفت أنهم سيضعونه تحت الجادر تجمدت بمحامي وتوقف الزمن الذي كنا نعد ثوانية ننتظر الخلاص موتاً سريعاً أو حريةً بعيدة ولم تَنَل سوى الوحدة والنسيان والموت الأحمر

هناك حيث كان يقع رجال سوريين بأوطانِ لكنهم دون أسماء لا يعرفهم أحد أبداً رحلوا بصمت مهيب .
صمت يشبه كبراء الشهيد حين يسقطُ مضرجاً بإيمانه ويغمر جبينه التراب وهو بذات اللحظة يعانقُ السماء لأنَّه قدم روحه وهل بعد الروح شيء .

و كم هو الفرق بين أن تقرأ المأساة وبين أن تكون فيها . وأن تكتب الفاجعة وأن تمر منها .
(الجادر)) هو اسم يعرفه السوريون لقمash سميك يصنعون منه الخيام وأغطية السيارات الكبيرة فهو قوي لا ينفذ منه الماء ولا يتمزق بسهولة

و حين ابتعد المسوخ تلك الطريقة في القتل طبقوها علينا عشرات المرات .

حيث كان يؤتى بالمعتقل عارياً ومعصوب العينين يفكرون له يديه ورجليه من الأغلال يرمونه على الأرض ليستلقي في وسط الغرفة ثم يغطونه بالجادر ويربطون أطراف الجادر بزوايا الغرفة فتصبح أرض الغرفة كلها مغطاة بالجادر والمعتقل تحته .
ثم يبدأون بضربه بكل شيء من حديد . القصبان الحديدية والمطارق والبواري وأنابيب التمديدات الصحية وبعضهم كان يأتي بأحجار والهدف من ذلك كان شيئاً :

الأول : أن الجادره يمنع رشقات الدم التي تنفر من أجساد المعتقلين التي تكون بالأصل مهترئة ومملوءة بالقيح تحت حيم ضرباتهم أن تصل إليهم .

والثاني : أنهم يتنافسون فيما بينهم ليروا من هو الأقوى بينهم بالضرب بحيث يجعل المعتقل يرسم أشكالاً غريبة تحت الجادر كأنه يمثل .

بينما صوته يتحول لعويل في ذاك القبر الأخير .

وكلما دفعَ الألم المعتقل أن يهرب باتجاه ما تجمعوا له بذات الإتجاه ليُمطروه بالضربات التي تكسر المُكسَر من عظامه أضعافاً مضاعفة

فيقع عليه بذات اللحظة قضيبٌ من حديد يكسر أضلاعه وحجرة كبيرة تُفتَّ ركبتيه ومطرقة يدقُّ بها أحد المسوخ وجهه ليكسر بها أحد محاجر عينيه . والمعتقل يصرخ ويتقلب بينهم وهو يضحكون ويمرحون .

ومشان السيد الرئيس خود هي يا خاين !

ولماذا يحضر فيهم الرئيس ويغيب الوطن . ولماذا يغيب فينا الشخص ويحضر الوطن .

ولماذا مدعنا نحو الحرية جسراً صنعتها من لحومنا ودماءنا . بينما حفروا هم خنادق حول رئيسهم المعتوه كي يبعدوه إلى الأبد ..

و ليجعلوا تحت الجادر من الأمتار القليلة التي هي مكان تحرك المعتقل بقعة من العذاب لا يمكن أن تصفها كل لغات أهل الأرض لو اتحدت معاً ولا يليق أمامها سوى الصمت فقط .

إن قيمة الأوطان ليست بما تملك . بل بما تنجب من أبنائها الذين يخطون اسمها على صفحات التاريخ بالتضحيات .. وإن قيمة الإنسان ليست بما يحوز بل بما يؤمن به إيمانه بقضيته التي يقدم لها روحه وهو بيتسنم . وأي قضية أطهر من وطني ل المؤمن بها .

ومن أكثر منا نحن السوريين فعل ذلك

بعد أقل من ساعة استدعونا للتحقيق وكنا ستة عشر مكبلين بسلسلة واحدة . ضغطت علي يد عبد الخالق فإسمه لم يأتي معنا وعرفتُ مصيره ورأيت ذاك بعينيه تركوه في زنزانتنا ليتهموه وحيداً .

افترقت يداي من يديه بعد أن خرجت مع باقي المعتقلين لأتركه خلفي . لكنه لا يزال أمامي حتى الموت .
الخامسة صباحاً حين عُدنا من قسم التحقيق كُنْت مَمْلُوءاً بأمل أن تكون معجزة حصلت وأجد عبد الخالق حياً

لكن الأمل بدأ يتبدد رويداً رويداً حين بدا لي الجادر وعليه جسده الغض الجميل .

عبد الخالق كان محمي الملامح تماماً وجهه كان قطعة مهروسة من اللحم الممزوج بقطع الدم قلعوا عيناه واحتلط ماء بصره بالدموع التي ذرفها قبل الموت .

ويداه مكسورتان وأضلاعه بعضها ظاهر بعد أن كشطوا لحم صدره كله . ورُكَّبُ رجله شقت لحمه وخرجت تنادي عليكم أيها السوريين أو على ما تبقى منكم .

ومرت أمامي كل الثنائي التي مضت مع عبد الخالق ذاك الجيل السوري الشامخ كان يقول لي وائل الزهراوي من عنا من حمص .. مانك من حلب !

وكلت أقول له أنت ملامحك أوربيه لست عربياً . فكان يغضب ويقول أنا عربي وسوري وحق هدول ويشير إلى حفر ذراعه التي يظهر منها عظامه من آثار التعذيب . ثم يبتسم طويلاً . ويتحقق في سقف زنزانتنا

وقدت من عظيم مُصابي بعبد الخالق على ركتي حين رأيته . لكن قبل الدبابة على ظهري أقمني من جديد .

وكم من عبد الخالق مضى لأجل الوطن ولم يكتب عنه أحد ولم يعرف عنه أحد . وكم من سوري مضى شامخاً إلى مصيره بصمت وهدوء دون كل هذه الضوضاء .

بقي عبد الخالق يوماً كاملاً هناك قبل أن يحملوا جسده الطاهر إلى المجهول .

والبعض لا يحتمل حتى أن يقرأ كلمات عن أولئك السوريين ولا يريد أن يصدق فداحة الحقيقة وعمق إجرامهم .

و قبل أن نستسلم علينا أن نُفكِّر . كيف استطعنا أن نصمد كل ذاكَ الوقت !!

لنعرف أننا صمدنا بدم عبد الخالق وسواء من السوريين الشرفاء . السوريين الذين قدموا كل شيء ولم يأخذوا أي شيء .

إن حياتي كلها وكل ما ذقته من عذاب لا تساوي غباراً كان يسكن حول جسد عبد الخالق الذي ذاق الموت الأحمر تحت الجادر فداء للحرية .

و يا من تتقاسمون الوطن حتى قبل أن تحرروه هل فكرتم للمله إن كنتم حقاً تستحقونه . !
إن أهم مافي الموت أنه يعطينا قيمة الحياة .

وإن حياة أولئك السوريين الذين لم تنجي النساء مثلهم كانت أسطير لم يعرف التاريخ مثلها .

وذلك لأن كل الرجال العظام زاقوا في حياتهم ألمًا عظيمًا وحزناً عظيمًا لكن تلك كانت أقدارهم !

أما أولئك السوريين فقد كان اختيارهم وبمحض إرادتهم الخالصة تقدموا للداء واختاروا التضحية فكانوا أعظم من مر في تاريخ نضال الشعوب .

في القانون نقول المتهم بريء حتى تثبت إدانته ... لكنني في الثورة أقول اليوم غير ذاك .

فكلنا خونة إن تركنا قطرة دم واحدة من دمائهم تذهب هباءً .

وكلنا خونة إن نسينا قضيتنا واستسلمنا للبكاء . و كلنا خونة إن سامحنا أو رضينا أو عفونا أو تنازلنا عن صرخة واحدة صرخناها . فسوانا دفع حياته كلها ثمناً لها .

ويا أيها العائدون لحضن النظام لا تخبروني ماذا فعل النظام بكم . أخبروني لم اختاركم أنتم بالذات لتعودوا إليه !!
عبد الخالق البارحة حلمتُ بك يا أخيه .

ووالله لازالت ابتسامتك ولحيتك الشقراء تطلان على حياتي كالوطن حين يجتاحتني الحزن العتيق على أولئك السوريين الخالدين .

ووالله لو خان كل أهل الأرض دمك يا أخيه .

ثق أن هناك سوريين شرفاء . الإباء طبعهم والإخلاص شيمتهم سيبقى ضياء تضحياتكم في صدورهم بتوارثونه جيلاً فجيلاً .

ولن ننساكم يا أيها السوريين الأحرار ما دمنا أحياء . فإن متنا فلن ينساكم رب السماء .
فارقدوا بسلام آمنين يارفاق العذاب فالأوطان لا يغيبها الجبماء.

المصادر: